

متابعات مجلة آداب

الآثار الإسلامية في السودان

الآثار الإسلامية في السودان رسالة دكتوراه متميزة أعدها الدكتورة انتصار صغيرون الزين، قسم الآثار، كلية الآداب وأجازها مجلس أساتذة جامعة الخرطوم في أبريل ٢٠٠١. ملخص الرسالة أن السودان بمختلف أقاليمه وبتنوع جغرافية قطاعاته وسكانه، يمثل نموذجا فريدا للآثار الإسلامية في القارة الأفريقية. وقد كان لقاطني وادي النيل قبل دخول العرب ثقافة حضارية ومدنية موعلة في القدم مما أثر على نموه وتطوره إبان انتشار العرب الرحل الناطقين بالعربية والذين وفدوا إليه منذ القرن السابع الميلادي غير بلاد السويس والصحراء الشرقية وجزر البحر الأحمر. وما إمارات العمري في الصحراء الشرقية وسلطنات التنجور والفور في الغرب والفونج في الوسط إلا تطورا لتلك الهجرة العربية البطيئة. والدراسة لعوامل تلك الهجرة المتشعبة البطيئة ليست بالأمر الهين. ومن الصائب أن تتم تقسيمها إلى مراحل يكون لكل مرحلة وثائقها الخاصة وتأثيراتها. وعليه كان لابد من التعامل مع كل مرحلة منفصلة مرة ومتصلة مرة أخرى بالأخرى وذلك على النحو التالي:

١- المرحلة الأولى ٦٤٠-١٣٠٠م (٢٠-٦٨٠هـ)

شهدت هذه المرحلة أهم حدث في تلك الفترة هو غزو رعاة الإبل المتحدثين العربية المسلمين لمصر في عام ٦٤٠م. وحدثت فيها محاولة غزو مملكة المقرة المسيحية في السودان اثنتين. انتهت المحاولة بإبرام اتفاقية البقط الشهيرة ٦٥١م. وهي الأولى من نوعها في دار الإسلام والتي بالرغم من التشديد في بنودها على عدم استقرار أي ظرف في دار الآخر، إلا أن العرب توغلوا جنوبا وشرقا مثلما فعلوا في شمال أفريقيا.

تنوعت الدلائل الأثرية لهذه المرحلة من مستاجد (مسجد ابن أبي السرح بدنقلا العجوز، مساجد عين فرح وأوري بغرب السودان) وشواهد القبور في النوبة والصحراء الشرقية، والأدوات المستوردة، خاصة الفخار الإسلامي الذي وجد بكثرة في المواقع المختلفة مثل موانئ باضع وعيذاب ودنقلا العجوز وسوبا وكلولينارقي وقصر إبريم. هذا بالإضافة للوثائق التي عثر عليها في قصر إبريم. كل تلك أكدت وجود استيطان عربي في النوبة السفلى منذ القرن التاسع الميلادي.

٢- المرحلة الثانية ١٣٠٠-١٥٠٠ (٦٨٠-٩٢٠)

ترامت هذه الفترة تاريخيا مع نهاية مملكة المقررة المسيحية قبل قيام مملكة الفونج الإسلامية وقد تميزت بحدثين مهمين هما نهاية مملكة المقررة وبدء وصول العلماء من الجزيرة العربية في مهام إصلاح الدين وبعدها تدفق العرب بأعداد كبيرة للصحراء الشرقية ووادي النيل وتوغلوا جنوبا في البطانة والجزيرة.

وجدت دلائل أثرية وأدبية لهذه الفترة تمثلت في الجلاوي والمساجد التي شيدها العلماء في منطقة دنقلا العجوز وديار الشايقية وازدهرت مملكة التنحور غربا بقصورها ومساجدها هذا بالإضافة للأدوات المستوردة. وأدبيات المؤرخين والجغرافيين والرجال العرب.

٣- المرحلة الثالثة ١٥٠٠-١٨٠٠ م (٩٢٠-١٢٨٠ م):-

تميزت هذه المرحلة بثلاثة أحداث أولها مملكة علوة التي حلت محلها مملكة الفونج الإسلامية، ثم وصول العثمانيين حتى الشلال الثالث الذي أصبح حدهم الجنوبي. والحدث الثالث هو قيام سلطنة الكيرا في غرب السودان وكانت مركزاً لطرق تجارية من الغرب للشرق ومن دارفور لمصر لمؤثرات خارجية متنوعة.

أنت معظم الأدلة الأثرية من هذه المرحلة وقد تنوعت لوجود ثلاثة أقاليم مختلفة في حكوماتها، فهناك منطقة سنجك إبريم والتي تضم قلعتي صاي وإبريم

ومختلفهما التي تكشف عن نوع الحياة في تلك الفترة. أما في منطقة الفونج فتوجد المدن والقرى والقلاع والقباب. وفي الغرب توجد القصور والمدن والمساجد. أما جنوب خط عرض ١٠٠ شمال فلا يوجد دليل على سيطرة الفونج أو دخول المسلمين قبل القرن التاسع عشر الميلادي. وقد دلت الأبحاث الأثرية على وجود فخار الفونج وأدوات التدخين بالقرب من الرنك وملكال.

الخاتمة:-

اتضح من هذه الدراسة وجود مشكلات في العمل الحقلية تمثلت في تدمير معظم المواقع بسبب هجرها وطبيعة المواد المستخدمة. كما تتم في معظم الأحوال عمليات هدم وإعادة بناء للمباني التاريخية بدون تسجيل وتوثيق للأثر الأصلي بالإضافة لعمليات الزراعة والمشاريع التنموية الأخرى.

اتضح أيضا وجود مشكلات خاصة بالبحث والتحليل حيث لم يتم التعامل مع الآثار الإسلامية في السودان بصورة جدية وربما يعود ذلك لتعريف الآثار الإسلامية العالمي والذي يعنى بالعمائر الفخمة والفنون الزخرفية والتشكيلية المختلفة. كما تم إهمال الأدوات التي يعثر عليها باعتبارها جزءا من التراث الفولكلوري للسودان.

إن قلة المعلومات عن السكان والنشاطات التجارية وأماكن الاستيطان من أكثر الأشياء التي أدهشت الباحثة والتي صعبت عملية إعادة بناء الأنماط الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية للمناطق المختلفة خاصة في المرحلتين الأولى والثانية.

إن أفضل الطرق لمسح المواقع المتهدمة هو استخدام التصوير الجوي والأقمار الصناعية بالإضافة لأدب الرحالة والتراث الشفاهي والمخطوطات القديمة ومخطوطات المؤرخين الشعبيين بالإضافة لمخلفات العظام في مواقع إنتاج الطعام.

اتضح من هذا البحث أن العمل في هذا المجال ما زال في بدايته. إن النظرة للآثار الإسلامية كمباني فخمة وأدوات رائعة الجمال كان لها أثرها الكوارثي على تطور هذا العلم. لذا لم تقم أي محاولات لفهم المحتوى الاجتماعي لأي موقع والحياة اليومية فيه. ولم يضع أي اعتبار للدولة الإسلامية جنوب الصحراء والتي لم تحكم بواسطة الخلافة الإسلامية. ونحو هذا الفهم المتقدم نجد محاولة ت. إنسول T.Insol ودراسته عن مالي وكتابة عن آثار الإسلام The Archeology of Islam (1999).

تأمل الباحثة في أن يؤدي هذا البحث عن الوضع في السودان إلى تطور منهج في البحث عن نوع جديد من الآثار الإسلامية. ويوصي البحث في نهايته بإجراء مسح شامل لكل السودان بواسطة مجموعة متخصصة واستخدام منهج تداخل العلوم لتسجيل المواقع وإعداد خطط للحفاظ والصيانة لكل المواقع التي لا تزال واقفة.